

الأمثل في تفسير كتاب الإن المنزل

[219] وبعبارة أخرى: إنَّ الإصرار على تكذيب الآيات الإلهية قد ترك في نفوسهم وأرواحهم أثراً عجباً، بحيث خلق منهم أفراداً متصلبين منغلقيين دون الحق، لا يستطيع نور الهدى من النفوذ إلى قلوبهم. ولهذا يقول أوّلًا: (سأصرف عن آياتي الذين يتكبرون في الأرض بغير الحق). ومن هنا يتّضح أنّ الآية الحاضرة لا تنافي أبداً الأدلة العقلية حتى يقال بتأويلها كما فعل كثير من المفسّرين - إنّها سنة إلهية أن يسلب الإنسان المعاندين الألدّاء توفيق الهداية بكل أشكاله وأنواعه فهذه هي خاصية أعمالهم القبيحة أنفسهم، ونظراً لانتساب جميع الأسباب إلى الإنسان الذي هو علّة العلل ومسبب الأسباب في المآل نسبت إليه. وهذا الموضوع لا هو موجب للجبر، ولا مستلزم لأي محذور آخر، حتى نَعتمد إلى توجيه الآية بشكل من الأشكال. هذا، ولا بدّ من الالتفات - ضمناً - إلى أنّ ذكر عبارة (بغير الحق) بعد لفظة: (التكبر) إنّما هو لأجل التأكيد، لأنّ التكبر والشعور بالاستعلاء على الآخرين وإحتقار عباد الإنسان يكون دائماً بغير حق، وهذا التعبير يشبه الآية (61) من سورة البقرة، عندما يقول سبحانه: (ويقتلون النّبيين بغير الحق) فقيّد بغير الحق هنا قيد توضيحي، وتوكيدي لأنّ قتل الأنبياء هو دائماً بغير حق. خاصّة أنّها أُردِفَت بكلمة "في الأرض" الذي يأتي بمعنى التكبر والطغيان فوق الأرض، ولا شك أنّ مثل هذا العمل يكون دائماً بغير حق. ثمّ أشار تعالى إلى ثلاثة أقسام من صفات هذا الفريق "المتكبر المتعنّت" وكيفية سلب توفيق قبول الحق عنهم. الأوّل قوله تعالى: (وإن يروا كل آية لا يؤمنوا بها) إنّهم لا يؤمنون حتى ولو رأوا جميع المعجز والآيات والثّانية، (وإن يروا سبيل الرشد لا يتخذوه